أصول ومقومات
الإسلام وصناعة الإنسان

انظر حولك تلحظ أن الدولة القوية، والأمم العظيمة، والتقدم المادى، والسبق الحضارى، صانعه هو الإنسان فالفرد هو حجر الزاوية، الذى يتربع على عرش الإنجاز والمكانة العالية، على أساس ما لديه من إمكانيات واستعدادت فطرية ومكتسبة يقتفى بها المنهج المحدد لمسار حياته، فقد أمده هذا المنهج باستحقاقات رفعت من شأنه فى نفسه وفى محيطه الاجتماعى وبين بنى وطنه وفى رحاب عالم يتأسس على المنافسة والغلب. وعلى هدى هذه الخصال الرفيعة فإنه يتمسك بهويته، ويدافع عن وطنه، ويتقدم بمجتمعه، ويرتقى بأمته والعكس بالعكس، فالمجتمعات لا يقوم كيانها والدول لا يهاب بأسها، والأمم لا تحوز الريادة على غيرها، إذا كان الفرد فيها خاويا من العقيدة، متجردا عن المبدأ، خرب الضمير، مجردا عن الإيمان برسالته فى هذه الحياة، وإنك لتدرك هذه الحقيقة الناصعة فى تفاوت أوضاع الأمم، على سند من مكانة الإنسان فيها، ومنزلة الفرد فى بنيانها.

وعى الإسلام قدر الإنسان، فحمله أمانة التكليف والمسئولية، والقيام برسالة الله الخالق الأعظم، وإعمار الأرض وفق المنهج الإلهى فى الكون، فغرسه فى نفسه وفى أعماق ضميره، وأمره باتباعه مع أقرانه، ومع الجماعة، وعبر الشعوب والعالم من حوله.

حظى الإنسان بهذه المكرمة، مع أنه ليس بالأقوى جسما، ولا بالأشد بأسا، ولا بالأعظم خلقا، وإنما لأنه تفضل على المخلوقات جميعا

بقيمــة فضلــى، برغم أن هناك مــن الأحياء والحيوانات مــا يفوقه قوة ومهابــة، وهناك مــن المخلوقات ما هو أكبر منه صنعــة وقدرا ألا ترى قوله تعــالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [ســورة غافــر: الآية ٥٧]. ولأن صنع الله الذى أتقن كل شــىء معتمد الحكمة، وخلــو أفعاله عن العبث فإن ثمة ميزة ومكانة، جعلت الحق – ســبحانه – يختار الإنســان لخلافته فى الأرض، فيكون هو ســيدها، ويســخر له ما خلق عليها، ويجعله الآمر الناهى والمتصرف فى شــئونها، القائم على أمرها، وذلك هو العقل الذى خصــه الله به، يدرك ويميــز، يبتكر ويبدع، يتفكــر ويتدبر فى الخلق والخلائق من حوله، وتلك خاصية تفوق ســائر الخصائص، ونعمة فوق ســائر النعم، تكفل للإنســان أن يحقق المقصود الإلهــى فى هذه العوالم المختلفــة، وأن يكون حقيقا بالســيادة، جديرا بالمهمــة المؤهل – أكثر مــن غيره – مــن الخلائق – على الاضطلاع بمســئوليتها وحمل الأمانة الإلهية، والتكليف السماوى، وإصلاح الدين والدنيا، والتوازن بين الروح والمــادة، وبــين أن يحيا لنفســه، وأن يهتم بالناس فــى جماعته وبنى وطنه، ومحيطه الإنسانى.

ولســنا بحاجــة إلى إيــراد قيمة تفرد الإنســان بهذه الملكــة العاقلة والمتبصــرة التى تفتح للإنســان آفاقا بغير حدود للعلا والتقدم، وترســم له معالم حياة ســامقة عالية، نتيجة استخدام الشخص ما وهبه الله من العقل والتفكــر، تلمس ذلك فى حفاوة القرآن بأصحاب العقل، وأرباب التفكر وأولى النهى وفى إشــادة القرآن بمادة العقل والتفكر والنهى أكثر

من خمسين مرة، وهو مغزى حرى بالنفس المسلمة أن توظف هذه الملكة المتفردة، من أجل عبادته وشكره على نعمه وآلائه، وتنمية الكون، وإشاعة معانى الإنسانية والسلام فى أرجاء المعمورة، وحق للقرآن أن يؤكد على الدور الذى تقوم به النفس المؤمنة، فى مثل قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٩١].

وبهذه الملكة الواعية أقام الله تعالى الحجة على الملائكة، وحقانية الإنسان بالخلافة، فى تلك الآيات النورانية، التى استهلها بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [سورة البقرة: الآيات ٣٠ - ٣٣].

لكن الإسلام لم يترك الإنسان أسير عقله، يركن إليه دون الهداية الربانية تلك التى ترشد خطاه، وتوجهه إلى سواء الصراط، تكبح جماحه، وتنقذه من ظلامية الحيرة والتخبط والضلال بقوله تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ [سورة الشمس: الآيات:

٧ – ٨] وقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [سورة البلد: الآية ١٠]، وقوله جل شأنه: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة المائدة: الآيات ١٥ – ١٦].

ولا يتأتى بلوغ هذه الهداية إلا بالركيزة الإيمانية، الإيمان بالله وبالمقدس الدينى الذى جمع به الإسلام، الأديان الإلهية وصهرها فى بوتقة الدين الجامع للمنهج الإلهى، والملائكة، والرسل والكتب المقدسة وبالقضاء خيره وشره، وبيوم الحساب والجزاء فى الحياة الآخرة.

هذا الإيمان يحمله المسلم فى صدره، ويغرسه فى ضميره، ويشرق به عقله، وهو مركوز فى فؤاده تشيع به جنبات نفسه وتنعكس على سلوكه، فتقوى عزيمته، ويملك إرادة فولاذية فيحقق بمجموع ذلك الاستخلاف الإلهى والتعايش البشرى، والتحضر الأممى، والريادة والسبق العالمى.

هذا المرتكز الإيمانى شيدت عليه النفس المسلمة، وقام عليه صرح الشخصية الإسلامية، فكان أن أيقنت بربها وقامت بحق الربوبية، ووثقت بنفسها، وانطلقت بذلك من نقطة الصفر إلى عمارة الكون، وإلى الآفاق الواسعة، فبلغت الريادة الخلقية والحضارية، على سند من الإيمان المقرون بالتقوى والعلم والعمل النافع والبناء الذى أسدى الكثير إلى العاملين.

وهنا يبرز على الفور الواقع المعاش هذه الأيام بسبب عجز المسلم عن

المشـــاركة فى التنمية الحديثة، ناهيك عن الحـــيرة والتخبط فى مجمل حياته، وتخلفه عن ركب الإســـهام فى إحراز التنمية وتعثره فى العطاء لدينه ومجتمعه ووطنه وأمته والعالم الذى يعيش فيه، تلك هى القضية، ونقطة الارتكاز. يتجلى ذلك يقينا فى حتمية إحياء الشخصية الإيمانية بالمفهوم الشامل القائم على الإيمان بربها ودينها، وبوطنها، وبإنسانيتها على النحو الذى تســلك به طريق العمل الجاد المثمر، لاســتعادة نموذج المســلم الأول، المؤمن بالثوابت والمقدســات الدينية، الذى يضع مصلحة وطنــه ومجتمعه وأمته نصب عينيه، ويتطلع بعزيمة صادقة إلى التصالح مع عالمه، والإســهام فى صنع التقدم الإنســانى، وتلك معضلة عصرية، يواجهها المسلم فى الحقبة الآنية والمستقبلية.

د. محمد الشحات الجندى
أستاذ الشريعة الإسلامية
كلية الحقوق – جامعة حلوان
عضو مجمع البحوث الإسلامية

الإسلام وقيمة الانتماء

يحار الإنسان بحق عندما يلتفت يمينا أو يسارا، فيجد هذا الكم الهائل من السلوكيات الخاطئة للعديد من الناس، فهذا يسب الدين وذاك يغتاب الآخرين وثالث يروع المارة، ورابع غير مكترث بنظام الشارع وحق الطريق، فيكسر إشارات المرور ويعرض حياة الناس للخطر، أو يزهق أرواحهم، وآخر يعتدى على حرمة المال العام، أو يتحايل من أجل الغش فى كل شىء، حتى فى الامتحان والحصول على أعلى الدرجات بالباطل أو يتربح على حساب البسطاء والمعدومين بالمتاجرة فى أقوات الناس، إلخ. هذه المظالم اليومية التى باتت مسلسلا يتكرر على مرأى ومسمع ممن يتابعون حال الشارع فى بلادنا دون مراعاة لحرمة الدين، ونظامه فى الحياة، ومن غير اكتراث لكرامة الوطن، وحرص على صالح المجتمع، بل امتد هذا الخلل وذلك العوار إلى عدم الاهتمام بقضايا الأمة وما يدور فيها، فلا يدرى الكثير منا، أو لا يبالى بهموم امته، وما يحاك ضدها من مؤامرات، وما يجرى على ثراها المقدس من مآس، وصار مسلك الجمهور الأعظم من الناس لا يشغله إلا نفسه، ولا يفكر إلا فى ذاته، ولا يعظم إلا مصلحته الخاصة، ويسعى بكل سبيل إلى الحصول على أكبر قدر من المكاسب، ولا عليه أن يأكل السحت أو ينغمس فى الباطل أو يهتك قواعد الدين، أو يفتئت على حق الوطن، وأصول الاجتماع المنظم، حتى ليخيل للأسوياء فى بعض الأحيان أن الاستقامة هى ضرب من الأمانى الكبار، وأن الاعتصام بحبل الدين صار حكاية لزمن مضى وعصر انقضى.

فلا سـبيل لعودته ولا مطمع فى اسـتعادته فى دنيا الناس، فى ظل استفحال الفوضى الهدامة والأنانية المفرطة والأنامالية التى أصبحت شعارا يهيمن على تعامل الكثير مع أقرب الخلق إليهم، ناهيك عمن سواهم من الأفـراد ، وحدث ولا حرج مع اغتيـال قضايا الوطن والمجتمع والأمة.

إن إشـاعة هـذا النمط من السـلوكيات فى مجتمع إسـلامى، فى الاعتداء على حق المؤمن بالمسـيحية أو اليهودية، هو اعتداء صارخ على مقدسات الإسلام والمسـيحية واليهودية وإخلال فج بخصوصية العلاقة التى تربط بين المؤمن وربه، بحسـبان أن الدين إنما يقيم العهد مع الله – جل شـأنه – ويجعله فى معيته، فيتخلق بأخلاق الصالحين، ويوفى بعهده مع الخالق تعالى وينضبط فى حله وترحاله وفى ممشـاه وقعوده، وفى معاملاته مع نفسـه وغيره، وفى عمله وفى سـائر أحواله بما قرره الدين من أحكام، وبما أقامه من عدل ونظام لا يصلح المجتمع بدونه.

إن أوليات التخلى عن تلك الأنماط الفاسدة من السلوك، هى أن يحيى المسـلم عهده مع الله رب العالمين، وأن يخلص العمل ابتغاء مرضاته لا يبغى إلا وجهه ولا يطمع إلا فى رضاه، ولا يخشـى إلا هو، وأن يعتقد دوما أنه لبنة فى صرح مجتمع، ينصلح بصلاحه ويفسـد بفسـاده، وأن حـب الوطن من حب الله – سـبحانه – وأن الواجب عليه أن يحرص على نفع أهله وبنى أمته، وأن ينغرس فى أعماقه الانتماء إلى هذا الدين المتين الذى يهديه إلى الصراط المسـتقيم، وإلى الحرص القويم على صالح الجماعة والوطن والأمة، ومن ثم تكون هذه القيمة الإيمانية العليا مركوزة فى نفسـه، مترسخة فى ضميره تجعله يجتهد بالعمل والبناء، وينتهى عن معايب السلوك، وأن يقدس حق وطنه ويحرص غاية ما يكون الحرص على شـئون ذويه والناس من حوله، فهذا هو الإسـلام الحق أن يعيش

المسـلم مع أهله وبنى وطنه وعموم أمته، يفرح لفرحهم، ويغتم لغمهم، امتثالا لقول الرسول ﷺ: «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم»، وهو ما يقتضى الانخراط فى العمل الجاد والهادف، والمبادرة إلى كل ما يفيد الناس، وينفى الضرر عنهم. تلك هى شـيمة المسلم الحق أن يصدق مع الله، وأن يوقر فى ضميره أنه محاسب ومسئول عن أقواله وأفعاله، وأن نتاج عمله صلاحا أم فسـادا يمتد إلى الناس ولا يقف عند شخصه، ولا يجـوز أن يحتج بأنه يكفيـه أن يقتصر على العبادة وحدها، فإنه بذلك يختزل الإسـلام فى الصلاة وأداء الشـعائر، ويعتقد أنه بصلاته وصيامه وحجـه قد أخلص العبادة لله، فإنـه إذا أدى ذلك، ولم يعبأ بحاجات الناس، ولم يبال بهمومهم، او انشـغل بنفسـه عمن سواه وحصره دنياه فى مصلحته فقط دون صالح الناس، وعاش لنفسـه غير مستشعر معاناة الآخرين، لا يمـد إليهم يد المعونة، ولا يأبه لعوزهم، فقد كذب بالدين وأحدث ثلمة فى مجتمع المسـلمين بقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [سورة الماعون: الآيات: ١ – ٦].

فحرى بالمسـلم وجدير به أن يحسـن فهم دينه وأن يكون وقافا عند حدوده، لا يعتدى عليها، ولا يتورط فى اقتراف أى منها، وأن يستشعر المسـلم أن خلق دينه الحياء، وكفى به خلقا، فإنه يكبح جماح النفس، ويروض تمرده وشـططه وشطحاته، ويكفه عن المعاصى، ويجعله بمنأى عن الشرور والآثام، ويحث على الفضائل والأخلاق.

وما بال هؤلاء الذين يستبيحون لأنفسهم التعدى على حقوق الناس، والتقصير فى أداء واجباتهم تجاه المجتمع ونحو وطنهم وأمتهم بمظاهر شتى كالاعتداء على حرمة الطريق وحق الوظيفة العامة، والسكينة المجتمعية وقيم الطهارة والشفافية والأمانة والجدية فى كل الشئون أن يفقهوا أنهم بهذا الصنيع قد انحرفوا عن الجادة وصاروا من أشـرار الأمة ومن أراذل الناس، وحسبهم أنهم بذلك المسلك قد خانوا عهدهم مع الله تعالى، وإن صلوا وصاموا وحجوا، وفرطوا فى حق الله، وأجرموا فى حق المجتمع.

لقد أحدثت هذه السـلوكيات الضالة أكـبر الأضرار بالوطن، ونعتت المجتمع الإسـلامى بالنقيصة والتخلف، ووصمته بالانحراف والفساد، وحسـبه أنه أجرم فـى حق الجماعة وأثرى على حسـاب المهمشـين والمكروبـين والمحرومين، فضيع الأمانة، وتنكب عن الحق، وخلع ربقة الانتماء والولاء للمجتمع والأمة.

إن واجب كل مسـلم أن يستمسـك بأهداب هذا الدين، وأن يجعل قدوته رسـول الله فى عباداته ومعاملاته، وفى حركاته وسـكناته، وفى أقوالـه وأفعاله وتقريراته، فقد نعته القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [سـورة القلم: الآية ٤]، ووصفته السـيدة عائشة g أنــه: «كان خلقــه القرآن»، فقد كان قرآنا يمشـى علـى الأرض، فقد تعانق الواقع مع المثال فى السيرة والمسيرة المحمدية، وتربى الصحابة، وأجيال المسـلمين فى عصور الإسـلام الأولى، حتى كان المسلم أمة، مما جعل عمر يقول: «والله لروح مسـلم أحـب إلىّ مما حوت الروم»، لأنها تمثل المبادئ القرآنية التى تقوم على تجسيد الانتماء والولاء لله ولرسوله ولمجتمـع المؤمنين وأيقن به وضحى من أجله، فكانت له الغلبة والنصر

بقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾ [سورة المائدة: الآية ٥٦].

هـذا الولاء تعددت دوائره، دائرة الإيمان بالإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقا وحضارة، ودائرة الانتماء للمجتمع، والتعامل مع أفراده على أساس المودة والرحمة والتكافل، ودائرة الحرص على الوطن ومساندة المسلم لأخيه، سواء أكان أخا لك فى الدين أم شريكا لك فى الوطن، تلك الأخوة التى تقيم مجتمع المؤمنين، وتقوى بناءه، وتقيم صرح مجتمع متماسك تختفى فيه الإحن والبغضاء، وتتوارى فيه آفات الأنانية والأثرة والجشع والغش، وتشيد علاقاته على سند من التعاطف والتضامن بما عبر عنه حديث رسول الله ﷺ «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا أشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى» فما أجدر أن يستعيد هؤلاء النفر وهم كثير الذين نسوا أو تناسوا هذه القيمة الرفيعة أن تحيا فى نفوسهم، وأن يقوموا بترجمتها فى سلوكياتهم وتعاملهم مع ذويهم ومع غيرهم إيمانا بتعاليم دينهم، وقياما بحق وطنهم.

ذلك أن لكل مسلم رسالة فى هذا الكون هى العبادة الحقة لله تعالى، وإعمار الكون بتنميته على هدى من العدالة والفضيلة والكرامة لبنى وطنه وأمته وللإنسانية جمعاء، وبغير ذلك فإن المسلم لا يكون أهلا لحمل رسالة هذا الدين، بل سيكون فى مؤخرة الركب، وسيوصم بكل نقيصة، وهو الجرم الفادح فى حق الإسلام والوطن، فياليت قومى يعلمون!!!

* * *